الفصل الثاني
مفهـــوم الإلـــه
بين السكان الأصليين في أستراليا

لقد حاولنا حتى الآن أن نثبت خطأ النظريات الحديثة الشائعة بين علماء الاجتماع الغربيين، الذين يستخدمون منطقا غريبا من صنع عقولهم، لإثبات أن فكرة وجود الله هي من خلق الإنسان، بدلا من أن يكون الإنسان هو من خلق الله تعالى. وما يُسمى بالدليل الذي يقدمونه على صحة نظرياتهم، ليس سوى مجرد وهم وخيال. فإلى أي مدى ستؤيِّد دراسةُ نشوء العقل.. عبر مليار من السنين بعد نشوء الحياة نفسها.. هذه الافتراضاتِ العجيبةَ، لهو في حد ذاته موضوع يخضع للبحث والتحقيق، ويحتاج إلى دراسة عميقة ومستفيضة. ومن ناحية أخرى.. نجد أن الدراسة غير المتحيزة لتاريخ الأديان، تكشف لنا أن الإيمان بالله تعالى لم يكن من نتاج الوهم الإنساني. وكان السؤال الهام والحيوي الذي بحثناه في ضوء تاريخ بعض أديان التوحيد في العالم هو: هل الله هو الذي خلق الإنسان.. أم أن الإنسان هو الذي خلق الإله؟

وننتقل الآن إلى تحليل نظرية علماء الاجتماع عن التطور التدريجي لفكرة الإله، فيما يتعلق بديانات السكان الأصليين في أستراليا. وسوف تكشف هذه الدراسة عن الخلل والخطل المتأصل في أسلوب البحث الذي اتبعه علماء الاجتماع، فإن بحثهم كان يبدأ دائما بالاعتراض المسبق بأن الله ليس له وجود. ولا يستطيع منصف أن يحكم بأن هذا الأسلوب يُعد أسلوبا علميا، حيث يصدر الحكم قبل أن يبدأ البحث. وهذا هو التناقض المتأصل الذي تكَشَّف وصار واضحا عندما واجه العلماء حقيقة الدليل

الأسترالي الذي لا يمكن نقضه. فقبل القيام بأي بحث ينبغي تحديد منهج البحث تحديدا واضحا، ولكن علماء الاجتماع لم يقوموا أبدا بتحديد هذا المنهج، ولا وضعوا أهداف البحث. إن المبدأ الوحيد الذي عرفوه هو اقتناعهم بفكرة عدم وجود الله، وكأن هدف البحث عندهم هو ببساطة معرفة السبب الذي يجعل الناس يعبدون الله أو الشخصيات الربانية التي ليس لها وجود، وعلى ذلك فهم يرون أن نمو الخرافة يصل إلى ذروته في خلق الآلهة، وهذا هو مدار بحثهم.

بعد هذا نلفت أنظار القارئ إلى تاريخ الدين في أستراليا. وهي قارة يمكن تتبع آثار حضارتها وتاريخها الديني والاجتماعي إلى ما لا يقل عن خمسة وعشرين ألف سنة. ويُعيد بعض العلماء هذا التاريخ إلى أربعين ألف سنة أو أكثر، بل يرى بعض الباحثين أن هذا التاريخ يمكن أن يعود إلى أغوار الماضي ليصل إلى مائة وثلاثين ألف سنة من تاريخ متصل لنمو الدين.. تاريخ متصل بغير انقطاع وبلا زيف.

إن القارة الأسترالية ليست فريدة لكونها منفصلة تماما عن بقية قارات العالم فقط، بل هي فريدة أيضا لكونها تحوي في رحابها مئات من الجزر الاجتماعية، تحتوي كل منها على قبائل ظلت منعزلة تماما بعضها عن بعض. ومن المعلوم أن هناك ما بين خمسمائة إلى ستمائة من هذه الوحدات القبلية، لكل منها تاريخها المستقل عن تطورها الاجتماعي والديني، خلال زمن يمتد من خمسة وعشرين إلى أربعين ألف سنة، في عزلة تامة بعضها عن بعض، فيما عدا الاتصالات العفوية عند الحدود التي تفصل بينهم.

لم تكن هذه الاتصالات قليلة وموجزة فحسب، بل كانت غير ذات قيمة أيضًا في نقل أفكارهم وعقائدهم وأساطيرهم وخرافاتهم فيما بينهم. ولم تكن اللغة هي الحائل الوحيد الذي سد هذا الطريق، وإنما أُغلق أيضا بسبب كراهتهم الشديدة المتوارثة للاتصال بالغرباء والتعايش معهم، الأمر

الذي خلق حاجزا في طريق انتقال المعلومات من قبيلة إلى أخرى.

وإذا كانت نظرة علماء الاجتماع التي تقوم على انتفاء وجود الله بها شيء من الحقيقة.. لكان من المحتم لنا أن نرى في كل من هذه القبائل نفس الظاهرة العامة في عبادة الأشياء في الطبيعة.. تتطور بالتدريج إلى الإيمان بإله واحد. غير أن ما نكتشفه هو واقع مغاير تماما لهذا السناريو، الأمر الذي يجلب الهم والغم والكدر لعالم الاجتماع.

فهناك إيمان بوجود قوة عظمى في الكون لدى جميع القبائل الأسترالية بغير استثناء. وهم جميعا يؤمنون بأن هذه القوة العظمى هي السبب الأول لوجود كل المخلوقات. وقد تختلف أوصافهم لهذه القوة في بعض الأمور التي لا شأن لها، كما أن مسمياتهم قد تتباين قليلا، ولكن حسب إجماع رأي علماء الاجتماع وعلماء الأجناس.. فإن جميع القبائل الأسترالية تؤمن بوجود مسبب الأسباب، أو ذلك السبب الأول الذي يسمى "الآلهة العليا"، وهو الاسم المرادف لكلمة "الله" في اللغة العربية أو God أو براهما أو بارماتاما في اللغات والديانات الأخرى.

وتظل الفكرة المركزية للخالق الأزلي الأعظم فكرة نقية، لا تعكرها أية خرافات أخرى منتشرة بين تراث تلك القبائل. وتختلف هذه الخرافات من قبيلة إلى أخرى، ولكنها لا تؤثر في إيمانها بالإله الواحد. ولا يستطيع أحد من علماء الاجتماع أن يجد في أستراليا أي دليل على النمو التدريجي لفكرة وجود الله تعالى، فالأفكار السائدة بين مختلف القبائل لا تختلف إلا في الصفات الإلهية، ولكنها لا تختلف في وحدانيته. فمثلا تؤمن قبيلة ويمبايو (Wiimbaio) بأن الله حين كان يخلق الأرض ظل قريبا منها، ولكن بعد أن انتهى من عمله صعد إلى الأعالي. كذلك فإن قبيلة وُتجوبالوك (Wotjobaluk) تؤمن بأن الكائن الأعظم بانجيل (Bunjil) كان يعيش على الأرض كرجل عظيم، ولكن فيما بعد صعد إلى السماوات.[1]

وحين يتحدث علماء الاجتماع عن هذه العقائد، فإنهم في كثير من

الأحيان يغفلون أن يذكروا للقارئ أن هاتين القبيلتين، وجميع القبائل الأخرى التي يبلغ عددها خمسمائة أو يزيد.. كلها تؤمن بأزلية الخالق، سواء اتخذ صورة آدمية أم لا، فليس هذا هو بيت القصيد.. لأن المهم في الأمر هو أنهم جميعا يؤمنون بأن الأرض وما فيها ليست موجودة أزليا مع أزلية الخالق الأعظم.

غير أن الكثير من علماء الأجناس يتشككون في أصل وغرض العقيدة الإلهية لدى السكان الأصليين في أستراليا، ويساورهم الشك في أن ما يُعرف باسم "الآلهة العليا"* هو المرادف للكائن الأعظم المعروف في الأديان التقليدية الأخرى في كل مكان، وذلك لأنه من الصعب لدى هؤلاء العلماء أن يؤمنوا بأنه من الممكن أن يكون لدى مثل هذه القبائل البدائية والمتخلفة مثل هذه العقائد المتقدمة.

ولعل سخافة هذا الموقف المنافي للعقل تماما لا يحتاج لأي تعليق، لأن حجتهم تقوم على أنه لمجرد أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بحدوث شيء ما.. فهذا يعني أن ذلك الشيء لا يمكن أن يحدث – الأمر الذي يكشف بوضوح مدى تحيزهم لآراء مسبقة، وافتقاد الأمانة العلمية. فإن كان مجتمع بدائي مثل مجتمع الوطنيين الأستراليين يؤمن بإله واحد منذ بداية تاريخهم، فلن يبقى أمام علماء الاجتماع سوى الاعتراف بأن فكرة وجود الله لم تتطور عن خرافات أسطورية بدائية. ولكن كل ما نسمعه منهم هو تفسير صبياني وإجابة ساذجة: نحن لا نؤمن بهذا لأنه لا يمكن أن يكون قد حدث!

وفي محاولة لتجنب هذا الموقف المخجل والمضطرب، اكتشف ي.ب.تايلور (E.B.Tylor) أسلوبا آخر يحتج به في رفض الدليل الأسترالي.

---

* وأما تعبير "الآلهة العليا" فهو لا يدل عندهم على تعدد الآلهة، وإنما هو تعبير عن الجلالة والعظمة، كما هو الحال في استخدام صيغة الجمع في القرآن مثلا، تعبيرا عن الله تعالى الواحد الأحد. منه

ففي مقال له بعنوان "حدود الديانة لدى البدائيين" *Limits of Savage Religion* الذي نشره في جورنال معهد دراسات الأجناس *Journal of Anthropological Institute* عام ١٨٩١ زعم فيه أن فكرة "الآلهة العليا" هي من نتاج تأثير المبشرين المسيحيين على الديانة الأسترالية. غير أن حقائق التاريخ تكذب بشدة مثل هذه الدعوى السخيفة وتنقضها.

ويدحض أ.و.هويت (A.W. Howitt).. وهو عالم آخر ممن يؤمنون بالتطور.. دعوى تايلور مشيرا إلى أن الإيمان بإله واحد أزلي قد سبق حتما وصول أي من المبشرين المسيحيين، بل أيٍّ من المستوطنين الغربيين إلى مكان بعض القبائل الموجودة في جنوب شرق أستراليا.

ومن الغريب أنه هو نفسه لم يلحظ أنه كان من الواجب عليه أن يرفض ويستبعد فكرة أن المبشرين المسيحيين هم الذين بشروا بعقيدة التوحيد لدى القبائل الأسترالية، لأنه لا يوجد، في أي مكان من القارة الأسترالية بأسرها، أي أثر بالمرة لفكرة التثليث.. يمسّ من قريب أو بعيد فكرةَ الإله الذي يقدسه عامة السكان الأستراليين الأصليين.

ومع ذلك.. وبالرغم من المدى الواسع للبحوث التي قام بها هويت.. فإنه يبدو مترددا في أن يصل ببحثه إلى نتيجته المنطقية، بينما يعترف صراحة في كتابه الذي نُشر عام ١٩٠٤ أن أهالي أستراليا الوطنيين يؤمنون بالأب العام الذي يصفه بقوله:

> "... كان من الواضح أنه أزلي، لأنه كان موجودا منذ بداية جميع الأشياء وهو لا يزال حيا. غير أن أهالي أستراليا هؤلاء يؤمنون بأن كل إنسان سيكون في نفس هذه الحالة إن لم يُقتل قبل الأوان بواسطة السحر."[٢]

وهكذا يحاول هويت أن يتهرب من الدليل الذي لا مهرب منه، وهو إيمانهم بالله، ولذلك فهو يحاول أن يخلط الأمور في ذهن القارئ، إذ يقول:

> "من غير الممكن القول بأن أهالي أستراليا هؤلاء يؤمنون بدين عن وعي".[٣]

وهنا نرى مثالا آخر لمحاولة يائسة من جانب علماء التطور لتجنب ما

لا يمكن تجنبه. فالأمور التي يثيرها هويت لا تفتقر إلى الدليل الحاسم فحسب، بل إنها لا تتعلق أيضا بالموضوع الذي نناقشه. إن السؤال البسيط الذي كان من واجب أي عالم من علماء الاجتماع مواجهته هو: كيف أمكن لمجتمع بدائي.. مثل مجتمع أهالي أستراليا.. الذي كان منقسما إلى المئات من المجتمعات القبلية، التي لا يوجد بينها وسائل للاتصال وتبادل المعلومات، أن تؤمن كل قبيلة فيه على حدة بوجود كائن أوحد أزلي، وأعظم من كل كائن آخر؟ وأيضا كان عليهم إجابة السؤال الهام الآخر وهو: بأي وجه حق يتمسكون بنظرياتهم عن نشوء وتطور فكرة الإله في ضوء هذه النتائج؟

أما عن هويت.. فحتى إذا قبلنا ادعاءه الذي لا يقوم على أساس، بأن جميع أهالي أستراليا كانوا يؤمنون بأنهم إن لم يُقتَلوا بواسطة السحر، فإنهم من الممكن أن يصلوا إلى حالة يتماثلون فيها مع الخالق نفسه، فإن هذا لا يُشكل ملجأ له يهرب إليه، كما أنه لا يؤيد مطلقا أسطورة علماء الاجتماع عن تطور ونشوء فكرة وجود الله. وإن المرء ليدهش حقا كيف أن عالما في شهرة هويت يمكن أن يخلط بين أمرين مختلفين لا علاقة لأحدهما بالآخر. إن نظرية تطور فكرة الإيمان بإله واحد ونموها التدريجي من خرافات بدائية كانت تؤمن بآلهة متعددة.. لا علاقة لها مطلقا بالافتراض الذي يقول بإمكان تحول الناس إلى آلهة إن لم يضع الموت نهاية لفترة حياتهم. إذ على الأقل يمكن مقارنة هذه الفكرة بأخرى مشابهة مذكورة في الكتاب المقدس الذي يؤمن به اليهود والنصارى على السواء. ففي العهد القديم توجد قصة عن آدم وحواء والحية. وقد قالت الحية إن الله منع آدم وحواء من أن يأكلا من الشجرة المحرمة لكي لا يكونا مثل الخالق نفسه فيشاركانه في الحياة الأبدية. وهذه المشابهة الموجودة بين أفكار الوطنيين في أستراليا وتلك التي يؤمن بها اليهود والنصارى، تجعل من دين أهالي أستراليا أقرب إلى مجموعة الأديان التقليدية. وإن المرء

ليعجب حقا كيف غاب عن هويت أن يسجل هذا التماثل البيّن.

ومن الواضح أن الوطنيين الأستراليين يضعون خطا فاصلا بين الخالق والمخلوق. والرسالة البسيطة التي تعبر عنها أفكارهم هي أن الخالق ليس أزَليًا فقط فيما يتعلق بالماضي فحسب، بل إنه أبدي أيضا فيما يتعلق بالمستقبل، فهو الوحيد الذي يملك هذه الصفات، ولا يمكن لإنسان أن ينال الأبدية فيما يتعلق بالمستقبل، فكل إنسان مآله الموت. وهذا الاعتقاد لدى أهل أستراليا يضعهم في مصاف الأديان التوحيدية التي تشترك في نفس الاعتقاد بأن الله وحده هو الأزلي والأبدي.

وفي غمرة حماسه لتكذيب أن يكون لأهل أستراليا أي دين على الإطلاق.. فإنه يزعم بأنه لم يكن هناك ما يدل على قيامهم بأية شعائر أو تقديم القرابين. وهذه الملاحظة من هويت ليس لها علاقة أيضا بالموضوع قيْد المناقشة، سواء أطلق على عقائدهم اسم الدين أم لا. فحيث إنه قد اعترف بأنهم يؤمنون بخالق أعظم أزلي الوجود، فإنه نجح في كشف زيف نظرية علماء الاجتماع عن النمو التدريجي لفكرة الإله.

أما عن صحة ادعائه بعدم وجود دليل على قيام سكان أستراليا بشعائر تعبدية أو تقديم ضحايا وقرابين بأي شكل من الأشكال للآلهة العليا الذي يؤمنون به، فهي دعوى لا تؤخذ كما هي على ظاهرها، إذ يجب أن نضع في الاعتبار أن معظم العلماء الغربيين أساءوا فهم بعض ممارساتهم الدينية. فإن ما يذكرونه على أنه عادة رؤية الأحلام لدى الأستراليين لا يتفق مع اعتقاد الأستراليين عنه.

وقد كان للمؤلف فرصة لقاء أحد كبار قادتهم للتحقق منهم عن حقيقة دلالة وقيمة هذه الأحلام، وهو أمر بالغ الأهمية.. لأن المرء يجد ذكر الأحلام في جميع ما كُتب تقريبا في الغرب عن أهالي أستراليا. وقد احتاج الأمر إلى بذل مجهود كبير من جانب المؤلف ليتمكن من إقناع ذلك الزعيم بالموافقة على بحث الموضوعات التي تتعلق بالدين، وكان من

الواضح أنه متردد في بحثها مع شخص ليس من أهل أستراليا الوطنيين. وقد تبين فيما بعد أن هذا التردد كان سببه الأكبر سوء الفهم، وسوء شرح وتعبير معتقداتهم على يد الكثيرين من الغرباء الذين بحثوا هذه الأمور من حياة وتاريخ سكان أستراليا. وهذا ما فهمه المؤلف من محادثاته معه بعد أن أمكن خلق جو من الثقة والألفة.

إن الأحلام بالنسبة لهم هي وسيلة للاتصال بالله تعالى، وبواسطة الأحلام يُخبَرون مُسبقا بالكثير من الأحداث الهامة في حياتهم. ولديهم نظام ديني هرمي يشمل الزعماء الذين هم على معرفة وثيقة بعلم تفسير الأحلام. ولا يوجد لهؤلاء الزعماء أي اتصال خارجي، ولا يُسمح لأحد من غير أهالي أستراليا الوطنيين بالتحادث أو التعامل معهم. وحين يتم عرض الأحلام عليهم.. لا يكون لدى الشخص نفسه الذي تلقى الحلم أية فكرة عن الرسالة التي يحملها ذلك الحلم، غير أن الشخص المنوط به تفسير هذه الأحلام يستطيع أن يقرأ ما تحمله من رسائل، وفي معظم الأحيان يتبين أنه على حق وصواب، فإن الأحداث التي تقع بعد ذلك تثبت صدقه وصحة تأويله، كما تبين أيضا أهمية وشرعية موضوع الأحلام.

وعلى هذا فلا بد أن يكون هناك خط فاصل بين معتقداتهم وممارساتهم الدينية من ناحية، وبين شعائرهم وخرافاتهم من ناحية أخرى، وهي غير ذات قيمة على أية حال. فإن الخرافات، والممارسات الخرافية، تختلف من قبيلة إلى أخرى، وليس هناك من تراث واحد مشترك بين جميع السكان سوى الإيمان بإله واحد، وأيضا اعتبارهم أن الأحلام وسيلة لتلقي التعاليم من الله تعالى. وفي الكثير من الأحيان تأتي الأحلام على إثر انهماكهم في تدبر أمر من الأمور على جانب كبير من الأهمية. وعلى هذا.. فمن الممكن اعتبار أن هذا التدبر العميق هو في الحقيقة اسم آخر للصلاة. ولا بد أن يكون الأمر كذلك.. لأن هذا التدبر العميق يعقبه

تلقي هذه الأحلام التي تُعتبر إجابة لهم، على العكس من ذلك التدبر الذي ينهمك فيه البوذيون. كذلك فإن الأحلام لدى أهالي أستراليا لها نظام قوي وقواعد محكمة ومحددة، وهناك عقاب صارم لمن يخالف أو ينتهك حرمته.

وعلى هذا فإن وصم هؤلاء السكان بأنهم غير متدينين، أو بأنه لا دين لهم، هو أمر غير صحيح وليس له ما يبرره. وفيما يتعلق بالموت 'عن طريق السحر' فهو أمر ليس له لديهم نفس المدلول الذي يحمله أو يعنيه في سائر أنحاء العالم. فلا يوجد بينهم سحرة مسرحيون يقدمون فنهم أمام الجمهور كما هو الحال في بقية العالم. وهم حتما لا يؤمنون بأن كل من يموت فإنه يموت نتيجة تأثره بعمل من أعمال السحر، يقوم به أحد الأشرار من خلال التمتمة ببعض الطلاسم السحرية. فالسحر لدى القبائل الأسترالية مرادف للتأثيرات الشيطانية التي ترمز للظلام مقابل النور في التعبيرات والمجالات الروحية. فمن الواضح تماما أن السحر في مفردات القبائل الأسترالية يعني الإثم والخطيئة، حتى إن المرء يجد أنه من الغرابة بمكان ألا يستطيع علماء الأجناس وعلماء الاجتماع أن يفهموا هذا المعنى. فالموت هو نتيجة السحر الذي يحدث في حالة كل كائن يتعرض للموت بغير استثناء إلا "الآلهة العليا"، وهو الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة، ولا يشاركه أحد في هذه الأبدية. ولا يعني هذا أبدا أن الموت في كل حالة يتم بسبب بعض السحرة الذين يطرحون سحرهم على الأحياء، فالموت ظاهرة عامة تتأثر بها جميع أشكال الحياة على السواء، في كل مكان في العالم، وليست أستراليا استثناء من ذلك. والقبائل الأسترالية تعلم هذا جيدا، ومهما كانوا من السذاجة التي يود بعضهم أن يلصقها بهم، فمن المستحيل أن ينسبوا إليهم غباوة اعتبار أن كل حالة من حالات الموت هي نتيجة لأعمال الشعوذة.

وعلى هذا فإن معنى السحر يمكن فقط أن يُفهم بمعنيين اثنين. الأول

هو أنه قد يعني الإثم والمعصية، الأمر الذي يسبب الموت الروحي، كما هو المفهوم في الأديان الأخرى في العالم. وإذا كانت هذه هي الحال، فلا بد أنهم تلقوا هذه الفكرة من نفس المصدر الذي تلقى منه أهل الكتاب فكرة وجود الإله الأبدي.

أما المعنى الثاني للسحر الذي يمكن أن يُنسب إليهم ببساطة.. فهو أن كل شيء يجدونه غير قابل للفهم وليس لديهم سبب لتبريره، فإنهم يُدخلونه في مجال السحر، أي أنه يعني ببساطة أنه من الأسرار. ومن هنا تكون ظاهرة الموت الحتمية والعامة، والتي تمثل الخط الفاصل بين المحدود وغير المحدود، بين الخالق والمخلوق، سرًّا يُعبر عنه أهالي أستراليا باسم السحر. غير أنه لا يختص بظاهرة الموت وحدها، وإنما ينطبق أيضا على كل شيء لا يجدون له تفسيرا في حياتهم اليومية.

إن الصراع الأبدي بين النور والظلام، الذي تعبر عنه الديانة الزرادشتية بألفاظ مادية إلى حد ما يمكن أن يمثل فلسفة ما يسمى بالممارسات الخرافية لقبائل أستراليا. فمثلا.. إن التقليد الذي يتبعونه في محاولة الابتعاد وتجنب ظل الأشياء المتحركة.. له نفس دلالة الظلام الذي يمثل الشيطان.

ولكن الأحلام وما يفهمونه منها، فليس من علاقة بينها وبين خرافاتهم؛ فهما ظاهرتان لا علاقة بينهما. فالأحلام جزء لا يتجزأ من صلب عقيدتهم للإيمان بالله، ووسيلة لتلقي الرسائل منه. ومنذ زمان بعيد لا يعرفون له بداية.. كانت الأحلام دائما بمنْزلة آيات دالة على وجود كائن عليم قدير يهتم اهتماما مباشرا بشؤون خلقه. ومن هنا نرى أن للوطنيين الأستراليين كل الحق في الغضب من الباحثين الغربيين الذين يرون أن العقائد والممارسات الدينية التي يؤمن بها ويمارسها أهالي أستراليا لا تستحق أن توصف بأنها دينية، لمجرد أنهم يعتبرونها شديدة البدائية والجهل. ولعل مجهودات العلماء الغربيين في تشويه صورة الدين لدى

القبائل الأسترالية، قد نشأت من خشية أولئك العلماء من ثبوت عدم صحة نظرياتهم التي كانوا على قناعة مسبقة بها.

وكان من بين هؤلاء الوطنيين رجل تأثر المؤلف بمعرفته تأثرا بالغا، حيث كان هذا الرجل قد نال قسطا عاليا من التعليم الجامعي، وكان مهندسا. وكان قد تحول إلى الديانة المسيحية، أو هكذا كان يبدو الأمر، قبل أن تتاح له فرصة الحصول على التعليم العالي. وعند بداية الحديث معه كان مترددا في الكلام عن العقائد الدينية وممارسات القبائل الوطنية. وما أثار الدهشة أنه رغم تحوله إلى المسيحية، فقد ظل في أعماق قلبه على ما كان عليه. وبعد أن بذل المؤلف جهدا شاقا طويلا في إقناعه بالكلام، وبعد أن أدرك ذلك السيد مدى إخلاص المؤلف واهتمامه الصادق العميق بديانة الوطنيين الأستراليين، بدأت الثلوج في الذوبان شيئا فشيئا. وكان الحزن والأسى الذي بدا واضحا في عينيه عميقا عمق الحضارة الوطنية في أستراليا. وقد أخبر المؤلفَ بأنه من النادر أن يتمكن الأجانب من الوصول إلى الصفوة في القمة الهرمية لدى الوطنيين، لذلك فإن المعلومات التي اكتسبوها أغلبها هامشية. وأبدى امتعاضا شديدا بل واشمئزازا من الأسلوب الذي ينظر به الباحثون الغربيون إلى ظاهرة الأحلام.

ومن المناسب هنا أن نشير إلى الحديث النبوي الشريف الذي يذكر أن الرؤيا الصالحة جزء من أربعين جزءًا من النبوة.[٤] ورغم أن هذا التعريف للأحلام يبين أن النبوة بوجه عام تبدأ بالأحلام والرؤى الصادقة، فإنها أيضا في النهاية تمهد السبيل لنُزول الوحي الكلامي من الله تعالى، ذلك الوحي الذي.. إذا شاء الله ﷻ.. يصطفي متلقيه ليكون رسول الله.

وعودة إلى موضوع ما يستخلصه الباحثون الغربيون.. نرى أن الأمر يقتضي الاعتراف بأنهم ليسوا جميعا سواء في مسلكهم السلبي تجاه التجارب الروحية للقبائل الوطنية في أستراليا. فمن بينهم علماء يتمتعون بالرؤية الواضحة، والشجاعة التي تجعلهم يعترفون بأن الوطنيين يؤمنون

إيمانا راسخا بإله أوحد أعظم. ويقول آندرو لانج (Andrew Lang) في كتابه *The Making of Religion* : إن "الآلهة العليا" هو أمر أصيل للوطنيين الأستراليين. ولأنه لا يوجد سوى القلة النادرة من الأساطير حول 'جميع الآباء'، فإن لانج كان محقا في استنتاجه بأن هذه الأساطير قد نشأت بعد وجود "الآلهة العليا".

كذلك فإن بيتر ولهلم شميدت (Peter Wilhelm Schmidt)، وهو قس ألماني من طائفة الروم الكاثوليك، كتب في بحثه المكون من اثني عشر جزءا بعنوان *Ursprung der Gottesidee* والذي نشره فيما بين عامي ١٩١٢ — ١٩٢٥، فأيد أيضا لانج.. وأكد على أن الأسطورة جاءت بعد فكرة "الآلهة العليا". وكان شميدت قد نشر مؤلفه باللغة الفرنسية بين عامي ١٩٠٨ — ١٩١٠ في مجلة دورية باسم *Anthropos* أسسها شميدت نفسه. ثم أعيد الطبع والنشر مرة أخرى تحت العنوان:

L'origine de Dieu. Etude Historico. Critique et Positive. Premiere Partie. Historico Critique (Vienna 1910)

ثم ظهرت طبعة ثانية ألمانية مُوَسّعة في عام ١٩٢٦، وشرح فيها شميدت وجود الأسطورة والدين في فكرة "الآلهة العليا"، فذكر أن الفكرة الأصلية للآلهة العليا، قد اختلطت فيما بعد بالخرافات الغامضة.

ومع ذلك فإن بعض علماء الأجناس لا يزال يُصر على أن فكرة "الآلهة العليا" كانت من نتاج الأساطير، ومن بين هؤلاء أحد الشخصيات المشهورة وهو رفائيل بتاتسيوني (Raffaele Pettazzioni) في كتابه بعنوان *Dio* عام ١٩٢٢، ولكن مما يثير الدهشة أنه لم يؤيد استنتاجاته بالأدلة الموجودة والمنتشرة في جميع قبائل الوطنيين الرئيسة. وكونه يعمم استنتاجاته التي استخلصها من الحكايات الأسطورية المتوارثة في قبيلة واحدة معينة.. على جميع قبائل سكان أستراليا.. لا يُعد عملا أمينا ولا منطقيا.[٦]

إن معظم القبائل الوطنية لا تشترك في نفس الأساطير التي ذكرها.

ولكن بالنسبة لإيمانهم بالله.. فهم جميعا يشتركون في فكرة السبب الأعظم الأزلي لوجود المخلوقات. وبالرغم من شهرة اسم بتاتسيوني كعالم من علماء الأجناس، فإن إصراره على الوجود المشترك بين الأساطير وفكرة الخالق الواحد الأعظم لا بد أن يعني أن الخرافات قد سبقت فكرة الإله باعتبارها فكرة متطورة.. نقول إن هذا الرأي لا يمكن قبوله بغير أي دليل يؤيده. وهو لم يحاول حتى أن يربط بين تكوين أساطيرهم وفكرة الإله الأعظم، أو يثبت أنها تمت خلال عملية النشوء والتطور.

إن نظرية النمو المتطور لفكرة الإله من الأساطير والخرافات، هي ببساطة فكرة تفتقد الدليل في أستراليا. وليس هناك أي دليل على الإطلاق يبين حدوث عبادة للطبيعة تحت تأثير الرهبة من الطبيعة أو الإعجاب بها. وليس هناك أي أثر يمكن تقصيه لإثبات وجود ممارسات تعبدية.. تطورت خطوة بعد أخرى لتقود في النهاية إلى إيمان أكثر تطورا بإله واحد. وعلى ذلك فلا يسع المرء سوى أن يتفق مع آندرو لانج على أنه من المحتم أن تكون الأساطير قد تلت الإيمان بإله واحد، ولم تأت قبله.

إن الأساطير بين الوطنيين الأستراليين هي أشكال متفرقة من الخرافات، وليس من علاقة ولا رابط بينها، الأمر الذي يدل على أنها ليست إلا نتاجًا لتجَول العقل وانحرافه عن سواء السبيل.. لدى أقوام بدائية أمية أثناء محاولاتها لاكتشاف بعض المعنى لما يلاحظونه من حولهم. وهذا الاتجاه من جانبهم لا يختلف عن الطبيعة العامة للإنسان.

لقد كان العجب والدهشة دائما تأخذ الإنسان عما يراه في الطبيعة والسماء والشمس والقمر والمجرات. وكثيرا ما حدث نتيجة لهذه الدهشة التي استولت على تفكير الإنسان أن تكونت الأساطير. وقد اكتست الآلهة التي توهم الوثنيون وجودها رداء من الأساطير. ولكن لم يكن هذا هو الواقع مع الوطنيين في أستراليا. فإن أساطيرهم لا تتعلق بأمور عباداتهم، ولا تدور حول شخصيات إلهية، كما هو الحال في أماكن

أخرى من العالم. فإن فكرة الإله لدى الوطنيين منفصلة تماما ومستقلة، فأشكال الوجود التي يعتقدون أنها تشغل الأفلاك والأجرام السماوية لا يعتبرونها آلهة. وعلى هذا يكون من الصعب بمكان الاتفاق مع باتاتسيوني حينما يزعم أن "الآلهة العليا" هو من نتاج الخيال الأسطوري.

إن مشكلة العقلانيين من علماء الأجناس وعلماء الاجتماع هي ذاتها التي يشترك معهم فيها جميع العلماء العلمانيين. فهم يرون أنهم إذا أقروا بقبول الدليل الأسترالي، فإن عليهم في النهاية أن يعترفوا بأن فكرة الإله الأعظم الأزلي لم تأت نتيجة للتطور الفكري، وبالتالي فلا بد أن تكون قد نزلت بشكلها الكامل هذا من عند الله تعالى نفسه، فإنه من المستحيل على أفراد القبائل البدائية البسيطة من سكان أستراليا الأصليين.. اختراع هذه الفكرة بمثل هذا الإجماع، وبغير أن يكون هناك اتصالات متبادلة بينهم. وعلى هذا، فإن إنكار علماء الأجناس وعلماء الاجتماع هذا الدليل لمجرد أنه لا يتفق مع أفكارهم، هو أمر لا يتفق مع صورتهم العلمية، ولا يُضفي الصدق على نتائج بحوثهم. غير أنه مما يثلج الفؤاد أن نعلم أنه يوجد من بين هؤلاء الكثير من الاستثناءات الطيبة. بالطبع هناك بعض الناس الذين لديهم من النضوج والأمانة الموضوعية ما يجعلهم يقبلون الدليل باعتباره حقيقة، غير أنه حتى هؤلاء يستمرون في البحث عن سبل للهروب والاختباء خلف ضباب الغموض والشروح المبهمة.

وهذه هي حالة ف. جربنر (F.Graebner)، فإنه بينما يقبل فكرة أن "الإله الأعلى" هو بالفعل الخالق لدى الوطنيين، وأنه:

> "... السبب الأول، على الأقل، لكل ما هو ضروري وهام بالنسبة لهم..."

فإنه يستمر في حديثه قائلا:

> "ولكن لعل بروس يكون مصيبا في شكوكه بأن مثل هذه الفكرة التجريدية عن السبب الأول، يمكن أن يكون لها القدرة، بين هؤلاء البشر البدائيين، على إبراز كائن يمتلئ دائما بالحياة".[٧]

وهكذا.. فإن جربنر، مثل هويت، يتردد في الاعتراف باستطاعة الوطنيين البدائيين أن يدركوا بأنفسهم صفات كائن أعظم، ومع ذلك فإنه يفتقد القدرة على استخلاص الاستنتاج الذي لا مناص منه، وهو أنهم تلقوا هذا من الله تعالى، ولا شك أن التحيز والتعصب الإلحادي واضح تمام الوضوح.

وفي بعض القبائل نجد أن فكرة "الآلهة العليا" تختلط ببعض الأشكال الأسطورية من حوله مثل الزوجات والأبناء إلى غير ذلك. غير أن هذا لا يلقي بأية شكوك على صحة وحقيقة ما ذكرناه، فإن مفهوم "الآلهة العليا" لدى الوطنيين الأستراليين، لا يختلف عن مفهوم الله تعالى في الأديان التوحيدية الأخرى.. إذ أن العلماء الذين اكتشفوا تفشي مثل هذه الأساطير، أبرزوا بعض سماتها الخاصة المميزة، وهي تساعد القارئ على أن يضع الخط الفاصل بينها وبين الله الذي يقولون إنها تتعلق به. ومن الخطأ مساواة نفس المفاهيم لما يسمونه بأساطير الوطنيين الأستراليين بالمفاهيم التي ترتبط عادة بكلمة "الأساطير" في كل مكان آخر من العالم. فإن الأساطير في كل مكان آخر في العالم تنشأ حول الآلهة في الديانات الوثنية، بينما لا يوجد بين أهالي أستراليا 'آلهة' تُعبد أو تُقدس. وكل ما يشير إليه علماء الاجتماع من أساطير فهي يقينا لا تدور حول شخصية "الآلهة العليا". ووجود عدد ضئيل من القبائل التي تؤمن بمثل هذه الأساطير، هو في ذاته دليل على أن هذه الأساطير لا تدل على وجود إيمان عام بها بين تلك القبائل. ولم يحدث أبدا أن نسبت إلى تلك الشخصيات الأسطورية أية قدرة على الخلق، ولا اعتقد أحد أنها تتمتع بالأزلية مع الله، فكلها مخلوقة، وليس من بينها ما خلق شيئا. ولا بد أن تكون كلها مخلوقة لأنها ليست أزلية. ومن المحتمل أن تكون هذه الأساطير قد اختُلقت بطريق الصدفة عن طريق بعض كهنة الدين في عصور متأخرة.

وعند الحديث عن نفس الموضوع نجد أن إلياد (Eliade) وهو يعيد صياغة ما قاله ت.ج.هـــ. سترهلو (T.G.H. Strehlow)، فإنه يَشرع في معالجة حالة قبيلة أخرى في أرنادا الغربية ويبين أنهم يعتقدون بأن:

"... الأرض والسماء كانت موجودة دائما وكانت دائما مسكنا لكائنات خارقة. وتؤمن أرنادا الغربية بأن الأب الأعظم (knaritja) يسكن في السماء، وله أقدام مثل أقدام طائر الأمو الأسترالي، وهو أيضا الشاب الأزلي (altjira nditja) وله زوجات ذوات أقدام مثل أقدام الكلب، وله الكثير من الأبناء والبنات. "إنهم يعيشون على طعام يتكون من الفاكهة والخضراوات في أرض دائمة الخضرة، لا تتأثر بنوبات الجفاف، ويجري خلالها نهر كبير يتدفق من مجرة درب اللبانة (Milky Way) ..."."[٨]

لقد كان لهم مكان يشابه جنة عدن حيث تنمو وتزدهر الأشجار والثمار والزهور، وكل هؤلاء الذين يسكنون السماء، يُنظر إليهم على أن عمرهم غير محدود وأنهم فوق الموت.

وبالرغم من أن هذه الكائنات السماوية تتمتع بصفتين خارقتين، وهما عدم التعرض للموت والسبق في الوجود (أي أنهم جاءوا قبل أبطال الطوطم) فإن سترهلو محق في رفضه الاعتراف بأهميتهم في تكوين الديانة الأسترالية. وهو لا يستطيع أن يقبل هذه الكائنات السماوية باعتبارها كائنات عظمى، لأنها لم تتكون بنفسها و لم تخلق الحياة.[٩]

ولا يمكن دحض رأي سترهلو، لأن هذه الكائنات الأسطورية توصف بأنها غير خاضعة للموت، ولكنها ليست أزلية في علاقتها بالماضي، بينما "الآلهة العليا" وحده هو الذي يجمع بين الصفتين، أي أنه أزلي، وأنه لا يخضع للموت. وبالإضافة.. لم يُنسب إلى هذه الكائنات الأسطورية أية قدرة مطلقا على الخلق، وبالتالي فلا يمكن اعتبارهم مشاركين في الألوهية مع "الآلهة العليا"، الذي يُعتبر الخالق الوحيد. كذلك فإنه من المحتمل أيضا أن تكون تلك المعتقدات قد صنفت بطريق

الخطأ واعتبرت أساطير، إذ من المحتمل أن تكون هذه روايات أصابها شيء من التغيير عن فكرة الجنة في بداية الحياة المعروفة والشائقة في الكثير من الأديان السماوية. أما وصف الساكن الأعظم في تلك الجنة بأن له أقدامًا مثل طائر الأمو، وأن زوجاته وأولاده لهم أقدام تشابه أقدام الكلب، فهي العناصر الغريبة الدخيلة على فكرة الجنة الموجودة في الأديان الأخرى، وإلا فإن جنات عدن دائمة الخضرة والممتلئة بالفواكه والخضراوات بدون أي خوف من جفاف، الخ.. قريبة الشبه بالوصف المجازي للجنة في القرآن الكريم.

كذلك فإن الغياب الكامل لذكر الحيوانات، فيما عدا "أبناء الله" له أيضا مدلوله الهام، فإن صورة الجنة المذكورة في الأديان الكبرى تخلو أيضا من ذكر الحياة الحيوانية، فالسكان هم فقط الأناس الصالحون الذين يُطلق عليهم أيضا اسم "أبناء الله". ولو كان الأمر كله هو مجرد أسطورة من اختراع العقل الساذج البسيط للوطنيين الأستراليين، لما كان لهم أن يستبعدوا على الإطلاق الحياة الحيوانية من تخيلاتهم عن الجنة. وقد يوجد ذكر بعض الحيوانات في الأفكار الأسطورية في أماكن أخرى، ولكن الصورة المشتركة بين الأديان العظمى عن الجنة تتميز بغياب الحيوانات بوجه خاص وبشكل واضح.

إن تاريخ تطور المجتمعات والأفكار الدينية لم يتشكل بأي عامل أو مؤثر واحد، بل هو شديد التعقيد. والانتقالُ المتبادل للأفكار بين منطقة وأخرى هو أمر كثير الحدوث، حتى إنه أصبح من الصعب فصل هذا الخليط من الأفكار بعضها عن بعض، وتقرير الاتجاه الذي انتقلت منه أو إليه، ومدى النفوذ الذي تأثرت به بأي درجة من درجات اليقين. ومحاولة تتبع خيط واحد من خيوط الفكر منذ بدايته إلى نهايته بترتيب متوال، هو في الواقع عمل يتضمن الكثير من التحديات.

ويستمر الجدل بغير انقطاع.. عن من الذي أثر وفي من؟ وما الذي

أثر على ماذا؟ فمثلا.. أحد الأسئلة التي تبقى بغير إجابة شافية هو هل البوذية هي التي أثرت على المسيحية، أم أن المسيحية هي التي كان لها نفوذ مؤثر على البوذية؟ غير أن ما نجده في أستراليا يختلف تماما في كونه أمرا وحيدا وفريدا في ذاته. وإن المرء ليعجب حقا عما عساه يمكن أن يكون مسلك علماء الاجتماع، لو أن الدليل الذي استخلصوه من دراسة الدين في أستراليا.. كان مؤيدا لوجهة نظرهم، أمَا كانوا يثيرون عاصفة هوجاء من الفرح والصخب، ويهتفون بأعلى أصواتهم في نشوة وانتصار: وجدناها.. وجدناها! ولكن مع تكشف الحقائق الصعبة لتاريخ الدين الذي لم يُصِبْه التغيير والتشويه في أستراليا، والذي يقف عقبة كؤودا في وجه علماء الاجتماع، فإنه مما يبعث على الأسى أن نرى كيف أنهم لا يزالون في صراع من أجل أن يتفادوا ما لا مناص منه، وأن يتهربوا مما لا بد منه. ونحن نتحدث هنا عن أولئك العلماء الذين لا يؤمنون إلا بالطبيعة، وهم يعانون الآن من صدمة قاسية لأنهم لا يؤمنون بالله الخالق. وقد كانوا على ثقة مطلقة بأن تاريخ الوطنيين الأستراليين سوف يؤيد قناعاتهم، ويشهد بصحة نظرياتهم، بأن فكرة الإله قد نشأت وتطورت بالتدريج على مدى آلاف السنين. غير أن ما اكتشفوه مختلف تماما ومثير للسخط. وقد يسأل البعض لماذا يكون مثيرا للسخط لدى هؤلاء العلماء، رغم أنه من المفترض أن يبحثوا عن الحقيقة؟ لم هذا الإحساس العميق لديهم بخيبة الأمل حين تكون الحقيقة مغايرة لآرائهم التي يؤمنون بها مسبقا؟ والإجابة بالطبع هي أنهم يعتبرون أن رفض كل دليل يمكن أن يؤدي إلى الله تعالى هو أمر سبق تقريره، وكل اكتشاف يناقض نظرياتهم وقناعاتهم لا بد من رفضه أو إساءة تفسيره. فإن العلمانية أو الإلحادية بالنسبة لهم مرادفة لإلغاء وجود الله. ومهما قدّموا من معاذير ومبررات للحفاظ على ماء وجه نظرياتهم العلمانية، فإنها لا تفعل شيئا سوى أنها تفضح بشكل أقوى أسلوبهم غير العلمي. ويبدو أن التعصب الأعمى

والانحياز الأحمق ليس من صناعة كهنة الدين وحدهم، فإن المفكرين من غير المتدينين ومن الفلاسفة يمكن أن يغترفوا من بحر التعصب المقيت حسبما يشاءون، ما دام كان ذلك في خدمة أغراضهم. ويبدو أن هناك بحرا عميقا يعج بأمواج التعصب والانحياز الأحمق، يثور ويطغى فيغرق في طياته ما لديهم من فكر ومنطق، ويمحو أي أثر للعدالة والإنصاف. وحينما يكونون في هذه الحالة فإنهم يتصرفون كما يتصرف المتدينون المتعصبون، لا كما يتصرف المفكرون المتفتحون فكريا، كما يعتبرون أنفسهم.

ولكن مهما كانت حججهم التي يحشدونها من أجل تأييد آرائهم المسبقة، فلن تستطيع أن تبعث فيها الحياة، أو تقيمها من بين الأنقاض التي انهارت عليها. فإن جميع نظرياتهم عن التطور التدريجي لفكرة الإله التي خلقتها أوهامهم البشرية، قد انهارت وسقطت على سطح القارة الأسترالية. وهم في فزع واضطراب بعد أن أصابتهم لعنة السقوط، ولا يمكن أن يعينهم أمير أو خفير على إعادة صياغة أفكارهم مرة أخرى. ويذكرنا وضعهم بقصة "الفردوس المفقود" من تأليف ميلتون. غير أنه ليس لهم معين من عقل أو منطق لإنقاذ الحطام، وإعادة اكتساب ما فقدوه إلى الأبد. وقليل ما كان ميلتون يعلم أنه في يوم ما سيقوم رجال حقيقيون بتمثيل قصته في الحياة الواقعية. إن فردوسهم المفقود لن يكون هو الله تعالى، ولكنه إله من خلق أنفسهم، فماذا يهمهم إن فقدوه إلى الأبد، وماذا يهمهم إن كان الله تعالى لا يكترث بهم بتاتا.

المـــــــراجع

1. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.4
2. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.13
3. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack.
4. Musnad Al-Imam Ahmad Bin Hanbal (1983) Vol.4. Al-Maktab-Al-Islami. Beirut, p.10
5. LANG, A. (1898) *The Making of Religion.* Longmans, Green & Co., London
6. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack.
7. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.24
8. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, p.30
9. ELIADE, M. (1973) *Australian Religions. An Introduction.* Pcornell Uni Press, Ithack, pp.32-33